حاوره: محمد أحمد الشرقاوي
مصر

الأديب المغربي الدكتور اليحياوي مصطفى لـ «الأدب الإسلامي»:

الأدب الإسلامي ضرورة لإعادة التوازن للفرد والمجتمع والعالم

تمثل الحداثة الفلسفية الشاملة في العالم الغربي - والتي انتشرت في العالم الإسلامي كما يرسمها واقعها وفكرها وممارساتها- الصورة المنحرفة لسعي الإنسان إلى التغيير، وسعيه وراء الجديد، سعيا متفلتا من الإيمان والتوحيد، غارقا في ظلام الشرك والإلحاد، سعيا يجمع اليوم خبرة آلاف السنين في الانحراف والشذوذ، وطغيان الشهوة الجنسية، وسيطرة المخدرات، لتدفع هذه كلها، أو بعضها، ردود فعل نفسية عنيفة غير واعية، تظهر في الفكر والأدب والسلوك، في ثورة هائجة على سنن الله في الكون.

هذا ما أكده المفكر الإسلامي والأديب المغربي الدكتور محمد اليحياوي مصطفى في حوار مع مجلة «الأدب الإسلامي» حول إشكالات الفكر الإسلامي المعاصر، وقضايا الأدب الإسلامي (واقعه وآفاقه).. وفي البدء سألناه:

العلاقة مع الحرف والكلمة

❖ ماذا عن البدايات؟

كانت البداية في الطفولة حيث تعلمنا الحرف من خلال كتاب الله سبحانه وتعالى ومن خلال سنة رسول الله ﷺ منذ نعومة أظافرنا وأول دراستنا، ولكن العلاقة مع الحرف والكلمة الأدبية بدأت في عام ١٩٥٩ عندما أخذت في نظم الشعر، ففي ديواني الأول «الأرض» ذيلت كل قصيدة بالتاريخ الذي نظمت فيه، وكان عمري حينئذ أربعة عشر عاما، ونمت هذه العلاقة واستمر نظم الشعر والرغبة في الدراسات الأدبية، وشجعني على ذلك أنه كان لدينا مكتبة ثرية فيها مخطوطات وكتب تراثية ودراسات أدبية حديثة، حيث حفظت العديد من قصائد شوقي وحافظ والبارودي والمتنبي وأبي تمام والبحتري وغيرهم.. ولعل المناخ العائلي أو البعد الوراثي له دور في تشكيل موهبتي الشعرية، فكثير من أجدادي كانوا شعراء، وترك بعضهم دواوين مخطوطة كنت أقرؤها وأنا صغير.

والعلاقة لم تقتصر على الأدب ودراسته، ولكنها امتدت - حسب دراستنا في دار المعلمين بفاس - إلى مجالات مختلفة من العلوم كعلم النفس والتربية وأصول التدريس واللغة اللاتينية والفلسفة والمنطق، بالإضافة إلى الدراسات العلمية والرياضيات ثم دراسة التخصص بعد ذلك في مصر وهو الهندسة.

والمحور الرئيسي أو الخط الأساسي في تجربتي الشعرية قضايا العالم الإسلامي وواقعه، فديوان «الأرض» مثلا في معظمه عن المغرب، وكذلك ديواني «ملحمة التحرير» وهناك دواوين أخرى مثل ديوان «الغرباء» وهناك قصائد طويلة مثل قصيدة «ملحمة التاريخ أو سقوط الخلافة» وتوجد قصائد قصيرة في الوصف والجمال والتأملات الفكرية والنفسانية والرثاء لمن أعرفهم معرفة حميمة، فقد رثيت ابني، كما رثيت الشيخ يحيى الغنوشي.

ومعظم كتبي التي صدرت، وعددها اثنان وثلاثون كتابا تعالج ثلاثة محاور رئيسية :

الأول: قضايا الفكر الإسلامي.

والثاني : التنظير للأدب الإسلامي وقضاياه، مثل كتاب «عالمية الأدب الإسلامي» و «إنسانية الأدب الإسلامي»، وكتاب «الحداثة في الأدب الإسلامي».

المحور الثالث: قضايا الواقع الإسلامي مثل: «أمراض الصحوة الإسلامية»، و «واقدساه»، و «فلسطين قضية الأمة».

المواهب المؤمنة

❖ هل ترون أن لدينا طاقات أو مواهب إبداعية تستطيع أن تعطي واجهة أدبية إسلامية تستوعب تعقيدات وقضايا العصر، وتصوغها صياغة فنية، وتقدمها على أنها أدب يرفع لواء فكرة الأدب الإسلامي؟

أعتقد أن المواهب والطاقات موجودة ومتوافرة، ولكنها تنقصها أشياء محددة، منها الرعاية، فالحق أن مواهبنا متجاهلة ومنسية، وربما تموت الموهبة وتدفن قبل أن تتفتح، لأنها لا تجد الرعاية التي تجدها الموهبة غير الإيمانية، كما أن المناخ العام السائد في عالمنا الإسلامي من صراعات وتمزقات ونزاعات يفقد الموهبة المؤمنة فرصة الظهور.. كما أن العديد من المواهب المؤمنة نفسها ينقصها التزود التام من الزاد الحقيقي الذي ينميها ويفجرها والمتمثل في القرآن والسنة، فتراها تتأثر بروافد الآداب الغربية مما يترك بصماتها على إنتاجهم، ولو أنهم نموا وبنوا أنفسهم من خلال القرآن والسنة النبوية وتشبعوا بالتصور الإسلامي الشامل والصحيح، لتفتحت مواهبهم على عطاء ضخم وجيد، ونستطيع أن نرفعه إلى مستوى الآداب العالمية، وأنا أقول: إن في الأدب الإسلامي القديم كشعر عبدالله بن رواحة وشعر جعفر بن أبي طالب وهو قليل، وشعر حسان بن ثابت وكثير من شعر عصرنا الحديث، ما يرتقي إلى أعلى المستويات الأدبية العالمية، وقد أتيحت لي دراسة الأدب الإنجليزي من أيام تشوسر إلى نهاية القرن الثامن عشر فلم أجد في هذا الأدب ما يوازي هذا المستوى من الأدب الإسلامي الذي يربط الدنيا بالآخرة، وتسود فيه الروح الإنسانية المطيعة لله تعالى، ويمجد قيم الخير والحق التي تسمو بالإنسانية وتخدم البشرية جمعاء، وهذا ما لا نجده في الآداب الأخرى.

التفلت من الإيمان

❖ **«الحداثة» من القضايا التي تثير في واقعنا الفكري والأدبي الكثير من الجدل والصخب، ولكم اهتمام خاص بها، حيث قدمتم أكثر من دراسة عالجتم فيها هذه الإشكالية، فما خلاصة رأيكم فيها؟**

إنني أرفض الحداثة القائمة في واقعنا اليوم، وأعتبرها جزءاً من القوى التي تهدم في واقعنا ومجتمعاتنا الإسلامية، لأن الأفكار التي تدعو إليها ليست نابعة من واقعنا، كما أنها لا تلبي حاجة من حاجات هذا الواقع.. فالذين يطلقون على أنفسهم (حداثيين) نقلوا أفكارهم نقلا دقيقا عن رعاتها في الغرب (فرنسا وإنجلترا وأمريكا وروسيا) وأثبت ذلك في دراساتي، وأوضحت كيف أن نصوص هؤلاء تطابقت مع نصوص الدعاة الأوربيين حرفا بحرف وكلمة بكلمة.

ومما نلحظه بوضوح غياب التصور الإيماني والتوحيد عن كل أنشطة الحداثة وميادينها، ومحاربتها لهذا النهج وللاتجاه الديني عامة بإصرار وإجماع وعنف، ومن خصائصها أيضا تبدل الآلهة التي نصبوها: العقل، العلم، الطبيعة، الإنسان، ومختلف الأهواء والشهوات، وذلك بأخذ جزئية في الحياة من خلال عالم محدود، وزمن محدود، وبيئة محدودة، ليجعلوا منها حقا مطلقا بادعائهم، ثم لا يلبث أن ينهار ادعاؤهم، أو يبدل، فتنهار معها أطر ونماذج وآلهة، من خلال هوى يسيطر سرعان ما يغلبه هوى آخر، وقد ولد هذا الانهيار للأطر والنظم صدمات نفسية عميقة لدى بعض المفكرين وبعض الناس وأورثت هذه الصدمات لدى آخرين شكا وحيرة، وقلقا واضطرابا، وتوترا وحمى، وانصب ذلك كله بصورة رئيسية على الدين واللغة، والمؤسسات والعادات، والأرحام والروابط والصلات، والأسرة والبيت.

وأورث ذلك كبرا وغرورا في الفكر، وحيرة وشكا في العلوم، فاندفعوا إلى غموض كثيف يخفون به ما يعانون من كبر وحيرة وقلق، كما أورث هذا كله انحلالا خلقيا وتفلتا كبيرا، تغذيه الحرية الفردية التي لا تعترف بضوابط.

فالحداثة الفلسفية الشاملة في العالم الغربي والتي انتشرت في العالم الإسلامي، كما يرسمها واقعها وفكرها وممارساتها، تمثل الصورة المنحرفة لسعي الإنسان إلى التغيير، وسعيه وراء الجديد، سعيا متفلتا من الإيمان والتوحيد، غارقا في ظلام الشرك والإلحاد سعيا يجمع اليوم خبرة آلاف السنين، غارقا في ظلام الشرك والشذوذ، والأمراض النفسانية والعصبية، والشر والفساد في الأرض. وحتى يستمر النهج ذاته، وتمضي الخصائص ذاتها، في سيرة جديدة تحاول محاولة غير صادقة التخلص من تبعة سيئات الماضي، فقد طلعت موجة جديدة أسموها «ما بعد الحداثة»

> ☆ البشرية كلها في أمس الحاجة إلى أدب إسلامي.

تحديد المصطلح

❖ **إشكالية «المصطلح» واحدة من الإشكالات التي تعانيها حياتنا الثقافية بشكل عام والأدب الإسلامي بشكل خاص، فما زلنا نردد كثيرا من المصطلحات الوافدة علينا، وهي مصطلحات تحمل خلفيات فكرية وفلسفية من الأرضيات الثقافية التي نبتت فيها، فمن وجهة نظركم كيف نتغلب على هذه الإشكالية ؟**

نحن في أمس الحاجة إلى المصطلحات التي نتفق عليها، فأي مجموعة من الناس أو حركة ثقافية لا يصدق التفاهم بينها إذا كانت المصطلحات المتداولة غير متفق عليها، وإلا سيصبح لكل واحد مفهومه الخاص، ويتحول الحوار بين الناس إلى حوار الطرشان.

ففي جميع أوجه النشاط البشري لا بد من تحديد المصطلح، ونحن في الأدب الإسلامي وفي الفكر الإسلامي وفي واقعنا الثقافي بشكل عام بحاجة إلى تحديد المصطلحات، لأن هناك مصطلحات باطلة وخاطئة ومرفوضة، فمثلا كلمة «الاستعمار» نستعملها لندل على عمل ظالم ترجمة

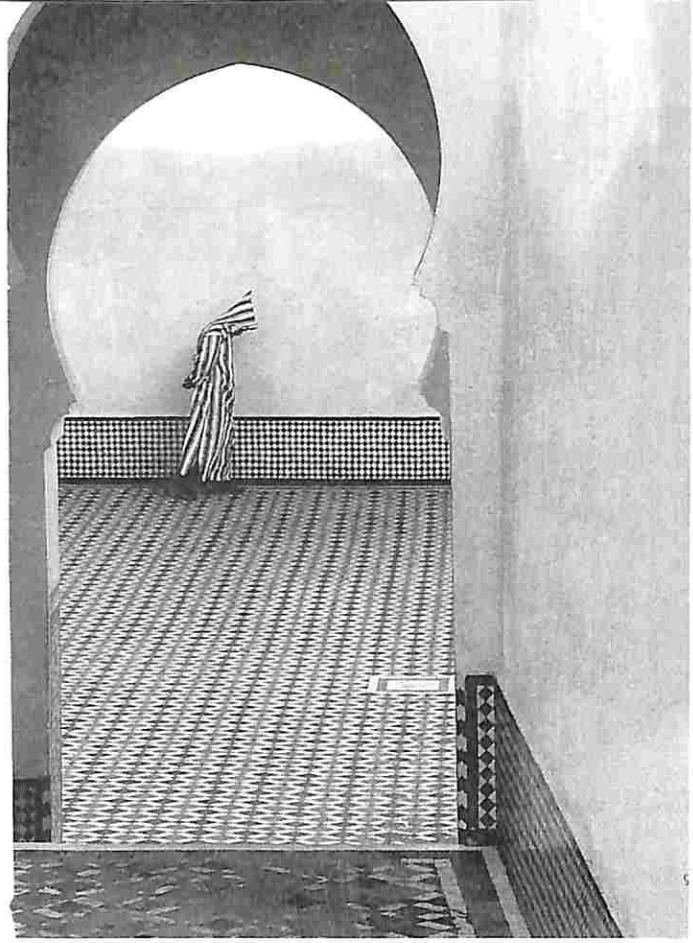

لكلمة Colonization الإنجليزية، بينما كلمة الاستعمار وردت في كتاب الله بمعنى آخر مختلف تماما عن هذا المعنى: أو بقول الله تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ (هود)، «واستعمركم فيها» أي طلب منكم عمارتها، فكلمة الاستعمار تمثل عملا رئيسيا في الأمانة التي يحملها الإنسان على الأرض، وبذلك نحن قلبنا هذا المعنى الضخم العظيم وحولناه إلى معنى الظلم، وكذلك مصطلح «الملحمة».. ذو الدلالات العظيمة أعطيناه المعنى اليوناني الفاسد.

ومن هنا فنحن في حاجة إلى تحديد المصطلحات المتداولة، وقد حاولت كمبادرة ذاتية أن أحدد المصطلحات في كتابي «الأدب الإسلامي وعالميته» لأنني وجدت أن كلمة «الشكل» مثلا يستعملها الأدباء كل حسب مفهومه المختلف عن مفهوم الآخر، ولذلك وضعت لها مفهوما لا أدعي أنه المفهوم المحدد الذي يجب أن يخضع له الجميع، ولكن أردت أن أوقظ وأنبه إلى ضرورة تحديد المصطلح باعتبار ذلك قضية أساسية في الأدب الإسلامي.

التوازن المفقود

❖ هل في الإمكان القول: إن الأدب الإسلامي ضرورة لإعادة التوازن داخل الفرد والمجتمع والعالم الآن ؟

نعم، فهذه حقيقة، لأن الأدب الإسلامي جزء لا ينفصل عن الإسلام والدعوة الإسلامية كما أفهمه، فالأدب الإسلامي له مهمة حقيقية في واقع الأمة المسلمة وواقع الإنسان في كل مكان على ظهر الأرض، وأؤمن أن البشرية كلها في أمس الحاجة اليوم إلى الإسلام وإلى آداب الإسلام لتحيي الإنسان على الأرض وتسعده، وتقدم له الخير الحقيقي بدلا من الكذب والدجل والزخرف الكاذب الذي تقدمه الحضارة الغربية المادية اللادينية وآدابها.

❖ هناك من يقول: إن الأدب الإسلامي ليس في حاجة إلى التنظير بقدر حاجته إلى المزيد من التجارب الإبداعية والممارسة والنتاج الأدبي التي تجسد مفاهيمه في الواقع. فما تقويمكم لحركة الإبداع الأدبي الإسلامي في عالمنا العربي والإسلامي الآن؟

أعتقد أن هناك جهودا طيبة مباركة، لا أقول إنها نضجت النضج الكامل، وأنا لا أستطيع أن أقومها لتشعب مجالاتها، ولكنني سأنطلق من تصوري للشعر بحكم أنه الميدان الذي أخوضه وأدرسه، فتوجد جهود تنبئ عن مستقبل طيب إن شاء الله،ولكنها تحتاج - كما ذكرت - إلى رعاية وتوجيه، إلا أن النظرية الأدبية الإسلامية قد لا تكون استقرت حتى الآن، فهناك بعض عناصر النظرية التي تموج هنا وهناك، وتدور حولها خلافات بين الأدباء الإسلاميين وداخل رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ربما مع الأيام تستقر، وبالنسبة لي فأنا أنطلق من نظرية وتصور للأدب الإسلامي وللجمال والإبداع وولادة النص عبرت عنها الدراسات التي كتبتها، وأحاول أن يكون إبداعي ونتاجي تطبيقا عمليا للنظرية التي أؤمن بها■